الباب الثالث

مذاهبه وآراؤه

لو تجوزتُ في تفسير الفلسفة كما يتجوز الكتاب في وقتنا لجعلت عنوان هذا الباب «فلسفة أبي الطيب»، ولكن الفلسفة في حقيقتها نظرات شاملة نافذة تنتج آراء في العالم أو الحياة أو الأخلاق يقوم عليها نظام من الفكر متصل متماسك. فالآراء المنثورة التي تلقى القارئ في ثنايا شعر شاعر أو نثر كاتب، ليست حقيقةً أن تسمّى فلسفة.

ولأبي الطيب آراء منها ما يُذكر في شعره مرة أو مرتين كما يقع في شعر غيره، ومنها ما يتكرر في صور شتى تنبه القارئ إلى أن وراء هذه الصور المكررة فكرة غالبة ورأيًا متمكنًا في نفس الشاعر. وهذا هو الذي يعدّ رأياً للشاعر، وصورة من صور عقله أو قلبه، وبه يمتاز شاعر عن شاعر ويقال: مذهب فلان، ومذهب فلان.

وسأعرض على القارئ في هذا الفصل جملة من آراء أبي الطب ومذاهبه التقطتها من شعره ورتبتها.

١- آراء أبي الطيب إنسانية ترجع إلى حياة الإنسان، وأخلاقه وعواطفه، وعلاقته بالجماعة التي يعيش فيها. قلما يتعرض شاعرنا لفلسفة العالم مبدئه ومنتهاه كأبي العلاء المعري؛ ولكن فكره يجد مضطربًا واسعًا في الناس بين الحياة والموت، والقوة والضعف، واللذة والألم، والنيل والحرمان، ... وهلمَّ جرّا.

٢- يكثر كلام الشاعر عن فناء الحياة وتقلبها وزوال نعيمها. وقد يغلبه الفكر في هذا فينطق به في أثناء المدح أو الغزل كما رأيتَ في الكلام على أخلاقه. يقول:

نصيبُك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال

***

هَوّن على بصر ما شقّ منظرهُ ... فإنما يقظات العين كالحلُم

***

لو فكّر الإنسان في منتهى ... حسن الذي يسبيه لم يسبِهِ

***

لم يُرَ قرن الشمس في شرقه ... فشكّت الأنفس في غربه

***

وما الدهر أهل أن يؤمَّل عنده ... حياةٌ وأن يُشتاق فيه إلى النسل

***

مُشِبّ الذي يبكي الشباب مُشيبُه ... فكيف توقّيه وبانيه هادمه

***

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بدّ من شربه

***

٣- والناس يسيرون في الحياة أفواجًا إثر أفواج بين الميلاد والموت:

على ذا مضى الناسُ، اجتماع وفرقة ... ومَيت ومولود، وقالٍ ووامق

***

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... مُنعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتي تملكَ سالب ... وفارقها الماضي فراق سليب

يـــدفَن بعـــضنا بعـــضًا ويمـــشي أواخرنـــا علـــى هـــام الأوالـــي

٤- وهذه الحياة، على قصرها واضطرابها وأوصابها وآلامها، محبوبة يكلف كل إنسان بها ويتقاتل الناس عليها:

أرى كلّنـــا يبغـــي الحيـــاة لنفـــسه حريـصًا عليهـــا مـــستهامًا بهـــا صَـبّا
فحـبّ الجبـان الـنفس أورده التقـى وحـبّ الـشجاع الـنفس أورده الحربـا
ولذيـذ الحيـاة أنفَـسُ فـي الـنفس وأشـــهى مـــن أن يمـــلّ وأحلـــى
وإذا الـــشيخ قـــال أفّ فمـــا مـــلّ حيـــاةً وإنمـــا الـــضعفَ مَـــلاّ

٥- وينبغي للإنسان ألاّ يجزع من الموت فهو حادث طبيعي:

نحـــن بنـــو المـــوتى فمـــا بالنـــا نعـــاف مـــا لا بـــدّ مـــن شـــربه
تبخـــل أيـــدينا بأرواحنـــا علـــى زمـــان هـــنَّ مـــن كـــسبه
فهـــذه الأرواح مـــن جـــوّه وهـــذه الأجـــسام مـــن تربـــه

***

إلـفُ هـذا الهـواء أوقـع فـي الأنفُـ ـــس أن الحِمـــام مُـــرّ المـــذاق
والأسـى قبـل فرقـة الـروح عجـز والأسـى لا يكـون بعـد الفـراق

***

وغايـــة المفـــرط فـــي ســـلمه كغايـــة المفـــرط فـــي حربـــه
فـــلا قـــضى حاجَتـــه طالـــب فـــؤاده يخفـــق مـــن رعبـــه

٦- والعيش جهاد مستمر. وغِلاب بين الناس لا هوادة فيه ولا رحمة:

دون الحـــلاوة فـــي الزمـــان مـــرارة لا تُختَطـــي إلاّ علـــى أهوالـــه

***

إنمـــا أنفـــس الأنـــيس سِــباع   يتفارســـن جهـــرة واغتيـــالا
مــن أطــاق التمــاس شــيء غلابــا   واغتــصابًا لــم يلتمــسه ســؤالا
كـــلّ غـــاد لحاجـــة يتمنـــى   أن يكـــون الغـــضنفر الرئبـــالا

والناس لا تكفيهم مصائب الزمان الطبيعية بل يزيدون عليها مصائب بأيديهم.

لا يألون في التنازع والاحتراب. وليس على الأرض ما يستحق هذا التعادي والتقاتل؛ ولكن الرجل الأبي لا بدّ له أن يدفع عن نفسه العدوان والهوان:

صـــحبَ النـــاسُ قبلنـــا ذا الزمانـــا   وعنـــاهم مـــن أمـــره مـــا عنانـــا
وتولـــوا بغـــصة كلهـــم منـــه   وإن ســـرّ بعـــضَهم أحيانـــا
ربمـــا تُحـــسن الـــصنيعَ لياليـــه   ولكـــن تُكـــدّر الإحـــسانا
وكأنـا لـم يـرضَ فينـا بريـب الـدهر   حتـــى أعانـــه مـــن أعانـــا
كلمـــا أنبـــت الزمـــانُ قنـــاة   ركّـــب المـــرءُ فـــي القنـــاة ســـنانا
ومـــرادُ النفـــوس أصـــغر مـــن أن   نتعـــادى فيـــه وأن نتفـــانى
غيـــر أن الفتـــى يُلاقـــي المنايـــا   كالحـــاتِ ولا يلاقـــي الهوانـــا
ولـــو أن الحيـــاة تبقـــى لحـــيّ   لعـــددنا أضـــلّنا الـــشُّجعانا
وإذا لـــم يكـــن مـــن المـــوت بـــدّ   فمـــن العجـــز أن تكـــون جبانـــا
كل ما لـم يكـن، من الصعب في الأنـ   ـــفس، ســـهل فيهـــا إذا هـــو كانـــا

٧- والناس ظالمون بطبعهم مخادعون، لا عهد لهم ولا خير فيهم فليسوا أهلاً للرحمة:

إذا مـــا النـــاس جَـــرّبهم لبيـــب   فـــإني قـــد أكلـــتهمُ وذاقـــا

obeikandl.com

فلـــم أرد ودّهـــم إلاّ خـــداعًا ولـــم أرَ ديـــنهم إلاّ نفاقـــا

***

ومـن عَـرف الأيـام معرفتـي بهـا وبالنـاس روّى رمحَـه غيـر راحـم
فلـيس بمرحـوم إذا ظفـروا بـه ولا فـي الـردى الجـاري عليهم بـآثم

***

ولمـا صَـار وُدّ النـاس خَبًّـا جزيـت علـى ابتـسام بابتـسام
وصـرتُ أشـكّ فـيمن أصـطفيه لعلمـي أنـه بعـض الأنـام

***

ولا تَـشك إلـى خلـق فتُـشمتَه شكوى الجريح إلى العِقبان والرخَم
وكـن علـى حـذَرٍ للنـاس تستره ولا يغـرّك مـنهم ثغـر مبتـسم

وأما ذمه أهل زمانه خاصة فملء شعره في عهد الأول، قبل مصاحبة سيف الدولة. وقد تقدم منه أمثلة [1].

٨- والإنسان كريم ولئيم بخلقته، لا يستطيع عنها حِوَلا:

وإذا الحلـم لـم يكـن فـي طِبـاع لـم يُحلِّـم تقـدّم المـيلاد

***

وأسـرعُ مفعـول فعلـتَ تغيـراً تكلّـفُ شـيء فـي طباعـك ضـدُّه

***

فقلّمـا يلـؤم فـي ثوبـه إلاّ الـذي يلـؤم فـي غِرْسـه
مـن وَجـد المـذهب عـن قـدره لـم يجـد المـذهب عـن نفسه

***

(١) انظر صفحة ٧٠ وما بعدها.

يـــراد مـــن القلـــب نـــسيانكم وتـــأبى الطبـــاع علـــى الناقـــل

٩- الحياة والعيش والناس في نظره كما وَصف. فماذا يفعل الرجل اللبيب؟ أيفّر على الزهد، ويخلص من مصائب الحياة، وآلام العيش، ومكائد الناس بأن يتجنب الزحام، ويفرّ من المعتَرك؟ أيتأسّى بأبي العلاء المعري؟ أم يتناسى الهموم والآلام باللهو والمرح وتسليط الخمر على العقل، ويتخذ لنفسه قدوة في أبي نواس، ويجعل هجّيراه رباعيات الخيام؟

هنا تظهر نفس أبي الطيب قوية؛ يجب أن تُلبَس الحياة على عِلاّتها، ويجب أن يأخذ كل حيّ نصيبه من العِراك، وحظّه من الجهاد. فمن نكص فهو جبان ليس له إلاّ الذلة والاستكانة والحرمان:

عجبـــت لمـــن لـــه قـــدّ وحـــدّ وينبـــو نَبـــوة القَـــضِم الكَهـــام
ومـــن يَجـــدُ الـــسبيل إلـــى المعـــالي فـــلا يَـــذرُ المطـــيَّ بـــلا سَـــنام
ولـــم أر فـــي عيـــوب النـــاس شـــيئًا كـــنقص القـــادرين علـــى التمـــام

***

وهذه الأبيات مَثَل لكل نفس عظيمة، وكل أمة إلى المعالي طامحة، وفيها حكمة يزيدها النظر وضوحاً، وتملأ الناظر إعجاباً بهذا الشاعر الطموح، الداعي إلى الكمال الذي يرى أعظم العيوب أن يرضى الإنسان بالنقص، ويقعد دون الغاية. وانظر النفس العظيمة في هذه الأبيات:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبُـه رجـلاه والثـوبُ جلـده
ولكـــنّ قلبًـــا بـــين جنبـــيّ مـــا لـــه مَـــدًى ينتهـــي بـــي فـــي مُـــراد أحـــدّه
يـــرى جـــسمه يُكـــسَى شُـــفوفًا تَرُبّـــه فيختـــار أن يُكـــسَى دروعًـــا تَهـــدّه
تهـــوى بمنجـــرد ليـــست مذاهبـــه للـــبس ثـــوب ومـــأكول ومـــشروب

يـرى النجـوم بعينـي مـن يحاولهـا كأنهـا سـلَب فـي عـين مـسلوب

ثم تأمل في قوله:

لا يـدرك المجـدَ إلاّ سـيِّد بطـل لمـا يـشقّ علـى الـسادات فَعّـال
لا وارثٌ جهلـت يمنـاه مـا كـسَبت ولا كَـسوب بغيـر الـسيف سـال

***

ومـن يـك قلـبٌ كقلبـي لـه يـشق إلـى العـز قلـبَ التـوى
ولا بـدَّ للقلـب مـن آلـة ورأى يـصدِّع صُـمّ الـصفا

***

ذريني أنـلْ مـا لا يُنـال مـن العُلـى فصعب العلى في الصعب، والسهل في
تريـدين لُقيـانَ المعـالي رخيـصةً ولا بـدّ دون الـشهد مـن إبـر النحـل

وهذه الأبيات من شعره في الكهولة. وأما شعر الشباب فقد بلغ فيه حد التهور والطيش والثورة، يريد الدنيا ثورة وطعانًا وضرابًا. وحسب القارئ أن يرجع إلى القصيدة:

فـؤاد مـا تـسليه المـدام وعُمـر مثـل مـا يهـب اللئـام

والقصيدة:

لا افتخـار إلاّ لمـن لا يـضام مـدركٍ أو محـارب لا ينـام

ليرى كيف تكون الدعوة إلى عزَّة النفس وعلوّ الهمة، والإقدام والمخاطرة.

١٠- تدينه:

ذكر ابنُ القارح في رسالته إلى المعري أبا الطيب وتحقيره أهل زمانه، ونقل خُرافة حبسِه في بغداد بدعواه النبوة. وذكر قوله لسيف الدولة:

وتغضبون على من نال رِفدكم حتى ينغّصه التكديرُ والمِنن

ثم قال:

«وهذا غير قادح في طلاوة شعره، ورونق ديباجته؛ ولكني أغتاظ على الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين، ويرومون إدخال الشبه والشكوك على المسلمين، ويستعذبون القدح في نبوة النبيين ... الخ».

فأجابه أبو العلاء في رسالة الغفران إلى أن قال: «وقد دلت أشياء في ديوانه (أبي الطيب) أنه كان متألهًا فمن ذلك قوله:

* ولا قابلاً إلاَّ لخالقه حكما *

ما أقدر الله أن يُخزى بريتَه ولا يصدّق قومًا في الذي زعموا

وإذا رُجع إلى الحقائق فنُطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان. لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يُظهر الرجل بالقول تدينًا؛ وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض. ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفي الباطن ملحدون ... الخ».

ليت شعري أكان قول ابن القارح عن أبي الطيب حديثًا شائعاً في زمانه، أم هي دعوى النبوة صدَّق بها الرجل فأدخل الشاعر في زمرة الزنادقة؟

إن ما حكاه ابن القارح عن حبس أبي الطيب ببغداد، وأنه كشف عن سلعة في بطنه، وقال: هذا طابع نبوتي وعلامة رسالتي ... الخ- يدل على أنه كان عاميًا في تصديق ما يروى دون تثبت ولا نقد، وقد ظن كما ظن غيره أن أبا الطيب تنبأ. وحسْب الرجل زندقة أن يتنبأ، وليتهم حين صدقوا قصة النبوة قالوا إنها كانت دعوى حدَثٍ في سن العشرين لا تقاس بها عقيدته طول عمره.

والخلاصة أن أبا الطيب لم يتهم بإلحاد ولا زندقة إذا استثنيا ما يحكى عن تنبئه، وقد علم القارئ رأيي فيه. وكان ابن القارح مولعًا يذكر الزندقة، والإكثار من تهمته في رسالته ليتبين عقيدة المعري.

وبعد، فهل النظر في ديوان الشاعر يدل على زندقة أو تدين؟ في الديوان عبارات تنم عن الاستخفاف وقلة المبالاة بالدين، وقد أدرك الثعالبي بعضها من قَبل؛ فقال في تعديد عيوبه:

«ومنها الإيضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين» ثم نقل أبياتًا منها قوله:

يترشّفن من فمي قُبلات هنّ فيه أحلى من التوحيد

وقوله في مدح طاهر العلوي:

وأبهرُ آياتِ التهاميّ أنه ... أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

وقوله في مدح بدر بن عمار:

لو كان علمُك بالإله مقسّمًا ... في الناس ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ ... ـقرآن والتوراة والإنجيلا

هذا بعض ما أخذه الثعالبي عليه. ورواية البيت الأول: «هنّ فيه حلاوة التوحيد»، والبيت الثاني: «وأجدى ما لكم من مناقب»- لا تدفع كلام الثعالبي، وأنا أزيد على ما ذكره الثعالبي قوله في مدح بدر أيضًا:

أمسَى الذي أمسى بربك كافراً ... من غيرنا، معنا بفضلك مؤمنا

وقوله لسيف الدولة حينما أسقطت الريح خيمته:

فما اعتمد الله تقويضَها ... ولكن أشار بما تفعل
وعرّف أنك من همّه ... وأنّك في نصره ترفل

وتفسير أبي الطيب الهم بالإرادة لا يقوم بعذره.

مثل هذه الأبيات تدل على الغلو في المدح، وقلة المبالاة. وتفسيرها بالغلظة والجرأة كالعبارات التي خاطب بها الممدوحين وآخذه عليها النقاد- أولى من تفسيرها بالزندقة. فاستيعاب الديوان قراءةً يبين أن الرجل كان شاعراً من شعراء المسلمين ينم كلامه عن المشاركة في العقائد الإسلامية في غير عناية بالنظر في الدين نظر أبي العلاء وأشباهه.

وانظر هذه الأبيات التي أثبتها هنا على ترتيب التاريخ. يقول وهو يصف مهراً له:

obeikandi.com

أيْ كَبْـتَ كـلّ حاسـد منـافق   أنـت لنـا وكلّنـا للخـالق

وقال لسيف الدولة:

ولـولا قـدرة الخـلاق قلنـا   أعمـداً كـان خلقـك أم وفاقـا

***

فمن كان يُرضى اللؤمَ والكفر ملكهُ   فهـذا الـذي يُرضـى المكـارم والربـا

ويقول في مدح سيف الدولة وحربه الروم:

خـضعتْ لمنـصلك المناصـلُ عنـوة   وأذل دينُـك سـائر الأديـان

وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة   والـسير ممتنـع مـن الإمكـان

والطـرق ضـيقة المـسالك بالقنـا   والكفـر مجتمـع علـى الإيمـان

***

ومهـذبٌ أمـر المنايـا فـيهم   فأطعنـه فـي طاعـة الـرحمن

***

فهنـأك النـصَر معطيكـه   وأرضـاهُ سـعيُك فـي الآجـل

***

ألهـى الممالـكَ عـن فخـر قفلـتَ بـه   شـربُ المدامـة والأوتـار والـنغم

مقلـداً فـوق شـكر الله ذا شُـطَب   لا تُـستدام بأمـضى منهمـا الـنعم

***

فأنـت حـسام الملـك والله ضـاربٌ   وأنـت لـواءُ الـدين والله عاقـد

***

يُـذم لمهجتـي ربّـي وسـيفي   إذا احتـاج الوحيـد إلـى الـذمام

***

سـقتَ إلـيهم منايـاهمُ   ومنفعـةُ الغـوث قبـل العطـب

obeikandl.com

فخـــرّوا لخـــالقهم ســـجّداً ولـــو لـــم تُعِـــث ســـجدوا للـــصُّلُب
أرى المـــسلمين مـــع المـــشركين إمـــا لعجـــز وإمـــا رهَـــب
وأنـــت مـــع الله فـــي جانـــب قليـــلُ الرقـــاد كثيـــرُ التعـــب
كأنّـــك وحـــذك وحّدتـــه ودان البريـــة بـــابن وأب

***

مثلمـا أحـدث البنـوةَ فـي العـا لـم والبعـثَ حـين شـاع فـساده

فهـذه الأبيـات وأمثالهـا تحـدث عـن رجـل مـسلم إذا حـدثت الأبيـات الأولى عن رجل مغال جريء على الدين.

١١- هل كان أبو الطيب قرمطيًّا؟

يقـول بلاشير في دائرة المعارف الإسلامية: «لـم يكـن المتنبي قرمطيًّا، ولكنه لقّن آراء القرامطة التي لقيت بين الأعراب آذانًا صاغية، وقد أشار في شعره إلى قتل أبي طاهر القَرمطي الحجاجَ في الحرم».

وقد سمعت أن المستشرق مسّنيون ألقى في مؤتمر المستشرقين الأخير في رومية بحثًا ادعى فيه أن أبا الطيب كان قرمطًّا. ورأيت بعض أدبائنا يميل إلى هذا الرأي.

والأبيات التي أشار إليها بلاشير والتي يحتج بها غيره هي قول الشاعر:

لأتـــركنَّ وجـــوهَ الخيـــل ســـاهمة والحـربَ أقـومَ مـن سـاق علـى قـدم
بكـــلّ منـــصلتٍ مـــا زال منتظـــري حتـــى أدلـــتُ لـــه مـــن دولـــة الخـــدَم
شـيخ يـرى الـصلوات الخمـس نافلـة ويـستحل دم الحجـاج فـي الحـرم

وقد قدَّمت الكلام على هذه الأبيات في صفحة ٤٢.

وأنا أبين فيما يلي ما يدل عليه ديوان الشاعر من نظره إلى القرامطة، ثم إلى الشيعة العلويين.

فأما القرامطة فقد لقيتْ منهم الكوفة وأهلُها مصائب، وأخذ الشاعر نصيبه منها. فما أحسَبه مال إليهم ولا سلك طريقتهم، وأقلُّ ما في الأمر أنها دعوى يُعوزها الدليل. ثم مَدْحُه سيف الدولة بقتل أبيه القرامطة لا يدل على أن في نفسه ميلاً إليهم. قال:

القائم الملك الهادي الذي شهدتْ ... قيامَه وهُداه العرب والعجم
ابنُ المعفّر في نجد فوارسَها ... بسيفه وله كوفانُ والحرَم

قال الواحدي: يعني حرب أبي الهيجاء القرامطة وولايته طريق مكة. وتأمل في قوله: القائم الملك الهادي ... الخ فلا يبعد أن يكون تعريضًا بمن يصدقون بالمهدي.

وأما التشيع فربما يفهم من قصيدته التي مدح بها أبا طاهر العلويّ في الرملة. قال فيها:

وأبهر آيات التهاميّ أنه ... أبوكم وأجدى ما لكم من مناقب
هو ابن رسول الله وابن وصيه ... وشبههما. شبّهتُ بعد التجارب

فتسمية عليّ وصيًّا اتباع لآراء الشيعة.

وأشار إليه طاهر العلوي بمسك في حضرة ابن طُغُج فقال:

الطيب مما غَنيتُ عنه ... كفى بقرب الأمير طيبا

يبنـــى بـــه ربّنـــا المعـــالي كمـــا بكـــم يغفـــر الـــذنوبا

ولكن إن لم يكن بد من الاحتجاج بما يجرى على لسان الشاعر أثناء المدح فقد خالف الشيعة إذ قال بعد البيت الأول:

إذا لـم تكـن نفـسُ النـسيب كأصـله فمـاذا الـذي تغنـى كـرامُ المناسـب
ومـا قُربـت أشـباهُ قـوم أباعـد ولا بَعُـدت أشـباه قـوم أقـارب

فهو يقول إن النسب وحده لا يرفع إنسانًا إذا لم يرفعه فعله وهذا لا يساير عقائد الشيعة في ذلك العصر.

وأبين من هذا قوله في مدح ابن العميد وهو وزير دولة شيعية:

فـإن يكـن المهـديّ مـن بـان هديـه فهـذا. وإلا فالهـدى ذا فمـا المهـدي؟
يعللنـا هـذا الزمـان بـذا الوعـد ويخـدَع عمـا فـي يديـه مـن النقـد
هـل الخيـر شـيء لـيس بـالخير غائـب أم الرشـد شـيء غائـب لـيس بالرشـد

هل هذا قول يجيزه لنفسه رجل يرى رأي القرامطة في الإمامة؟! أو هو استخفاف بالمهدي ومن ينتظرونه؟

ثم مدحُ ابن حمدان بأنه سيف الدولة العباسية وتكرار هذا وتسميتها الدولة الهاشمية ودولة الخلافة وخيرة الدول، وتسمية الخلفاء العباسيين أئمة قريش- كل هؤلاء برهان على أنه ما كان ينتحل إلا نحلة جمهور المسلمين في عصره.

يقول في مدح ابن عمار:

حـــسام لابـــن رائـــق المفـــدى حـــسام المتقـــي أيـــامَ صـــالا

ويقول في سيف الدولة:

لقد سلّ سيفَ الدولة المجدُ مُعلِما فلا المجدُ مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق المَلْك الأغرّ نجاده وفي يَد جبّار السموات قائمه

***

وشركتُ دولةَ هاشم في سيفها وشققتُ خِيس الملك عن رئباله

***

لقد رأت كل عين منك مالئها وجرّدت خَير سيف خَيرة الدول

***

إن الخليفة لم يسمّك سيفَه حتى بلاك فكنت عينَ الصارم

***

إمامٌ للأئمة من قريش إلى من يتقون له شقاقا

***

لقد رفع الله من دولة لها منك يا سيفَها مُنتصُل

***

لأمر أعدّته الخلافة للعِدى وسمته دون العالم الصارم العضبا

١٢- العصبية العربية:

أبو الطيب شاعر عربيّ النسب، عربي النشأة، عربي الطباع. فهو يمثل العربية تمثيلاً صادقًا في خشونته، ونفوره من الترف، وترفعه عن الدنايا، وإبائه وطموحه وبعد همته، وشجاعته وإقدامه وصبره، ودُربته على السفر، وبصره بالسبل والبلاد، وهلمّ جَرّا. ولو أن عنترة بن شداد وعمرو بن

كلثوم والحارث بن حلّزة عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش أبو الطيب لأشبهوه في كثير من قوله وفعله.

ذلك تمثيله العربية في أخلاقه ونزعاته وسيرته. وأما تحدثه بالعصبية العربية وإشادته بالعرب وفخره بهم فسأجمل القول فيها بعد هذه المقدمة:

بعض الكتاب يحاولون أن يفسروا تاريخنا بنزعات العصر الحاضر وبما يحسّون من عصبية. ولا بدّ لهم أن يتذكروا أن الأمم الإسلامية في القرن الرابع كانت تعيش في أخوّة الإسلام والتاريخ والأدب، وكانت عصبياتها لا تَطغَى على هذه الأخوّة. وكانت الفوارق الوطنية والقومية والسياسية تخالف ما نراه في عصرنا هذا.

فأبو الطيب حينما رحل من العراق إلى الشام فمصر فالعراق ففارس فالعراق لم يُسأل في طريقه عن موطنه، ولم يكلَّف حَمل جواز السفر، ولا تسجيل اسمه في سجلات الشُّرطة كلما فارق مملكة إلى أخرى. وقد أقام في الشام سنين يمدح أناسًا جلّهم عرب، وغير العربي منهم كالعربيّ في ثقافته ولغته ومعيشته. ورحل إلى مصر فمدح رجلاً أسود ولكنه مسلم يتكلم العربية ويعرف آدابها ولا يعرف لنفسه لغة أخرى ولا أمة غير الأمة العربية.

ولما رحل إلى فارس لقي ابنَ العميد، وهو علَم من أعلام الأدب العربي، ثم سار إلى عضد الدولة فإذا مَلكٌ عربيّ اللسان ينظم الشعر

العربي ويحب الأدب العربي ويصل شعراء العربية ولا يبالي باللغة الفارسية وآدابها وشعرائها.

فإنا انتظرنا أن يكون أبو الطيب في هذه الجماعات مثلا لعصبياتنا ونزعاتنا في العصر الحاضر فقد أردنا مخالفة السنن وتحريف التاريخ. قال أحد الكتاب: إن أبا الطيب كان قد وافق سيف الدولة على خطة يمحوان بها سلطان العجم من البلاد العربية، وذهب في هذا مذهبًا مغرقًا في الوهم [١]. وقال كاتب آخر إن أبا الطيب كان في شعره داعية للأعاجم مُشيداً بمجدهم وحضارتهم، معظمًا رجالهم بمدائحه ... الخ [٢]. وإذ كان مرجع الرأي الخيال لا الحقيقة، ودليلُه الوهم لا كلام الشاعر وتاريخه، اختلف القائلان هذا الاختلاف في أمر واحد بيّن.

ثم ننظر فيما يوحيه كلام الشاعر وسيرته.

فأما مدحه الروزباري وابن طغج وكافور ودلير بن لَشْكَروز وعضد الدولة فلا عار فيه، ولا إخلال بعزة الشاعر العربية إذا تذكرنا المقدمة التي أسلفتها. فلم يبق إلا النظر في كلام الشاعر لنتبين ما فيه من عصبية أو غيرها:

فأما أدلة العربية فثلاثة أضرب:

---

(١) مجلة المقتطف: عدد المتنبي.

(٢) مجلة المغرب الجديد: عدد المتنبي.

الأول: ذكر فيه العرب والعجم وأعرب عن عصبيته لقومه.

والثاني: لم يَقِس فيه العرب بغيرهم، ولكنّه دلّ فيه على اعتزاز بالعربية وافتخار بها.

والثالث: عطفه على القبائل العربية وحضه سيف الدولة على برّهم ورعاية الأخوة العربية فيما يشجر بينه وبينهم من خلال.

فأما الأول فقوله:

أحقّ عافٍ بدمعك الهمم ... أحدثُ شيء عهداً بها القِدم
وإنما الناس بالملوك وما ... تُفلح عُرْب مُلوكُها عجم
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَب ... تُرعَى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخزّ حينَ يلمُسُه ... وكان يُرى بظُفره القلم

وقوله في ذمّ ابن كَيغَلَغ موازنًا بينه وبين أبي العشائر الحمداني:

أفعال من تلد الكرامُ كريمة ... وفعال من تلد الأعاجمُ أعجم

وقوله في رثاء يَماك التركي أحد جند سيف الدولة:

وإنّ الذي أمست نزارٌ عبيده ... غنيّ عن استعباده لغريب

ومن ذلك استيحاشه في فارس من فقد اللغة العربية، والوجه العربي، واليد العربية، وحنينه إلى دمشق وضيافتها وحمص وخنُاصرة كما تقدم[1].

(١) انظر ص ١٧٤.

وأما الضرب الثاني؛ وهو اعتزازه بالعروبة وافتخاره، فيتجلى في مدائح سيف الدولة حيث يشيد بعربيته، ويعدّها من مفاخره كقوله:

تُهاب سُيوفُ الهند وهي حدائد ... فكيف إذا كانت نزاريةً عُزبا

***

تحيّر في سيف ربيعةُ أصله ... وطابِعه الرحمن، والمجدُ صاقل
إذا العربُ العرباء رازت نفوسَها ... فأنت فتاها والمليك الحُلاحِل
أطاعتك في أرواحها وتصرفت ... بأمرك والتفّت عليك القبائل

***

رفعت بك العربُ العمادَ وصيّرتْ ... قِممَ الملوك مواقدَ النيران

***

تشرّفُ عَدنانٌ به لا ربيعة ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم

والثالث: وهو عطفه على القبائل العربية، يتبين في قصيدتيه اللتين ذكر فيهما حرب سيف الدولة وقبائل العرب فاجتهد في عطف الأمير عليهم وذكّره بعربيتهم وقرابتهم، وقد قدمت أدلة هذا في صفحة ٨٦ وما بعدها.

وأما ما يخالف هذه العصبية أو يتُوهم أنه يخالفها فبيانه فيما يلي:

(أ) مدحه على بن صالح الروزباري الكاتب بقوله:

فارسيٌّ له من المجد تاجٌ ... كان من جوهر على أبْرواز
نفسُه فوق كلّ أصل شريف ... ولو أنّي له إلى الشمس عاز
وبآبائك الكرامُ التأسي ... والتسلى عما مضى والتعازي
تركوا الأرض بعدما ذللوها ... ومشت تحتهم بلا مِهماز
وأطاعتهُم الجيوش وهِيبوا ... فكلامُ الورى لهم كالنُّحاز

ولست أرى في هذا المدح إخلالاً بالعصبية فمدْح جماعة ليس تحقيراً لأخرى؛ لا سيما من شاعر له من وراء المدح مأرب. وكأن الشاعر ضاق عليه مجال القول في هذا الممدوح فحلاّه بشيء من مجد الفرس القديم. ولو أنه أراد تعظيم الفرس لا تسع له المجال في قصائد عضد الدولة وهو لم يذكر فيها كلمة عن الفرس وملوكهم. وقد مدح أبو تمام والبحتري غير العرب، وقال البحتري في القصيدة السينية التي وصف فيها إيوان كسرى:

ومساع لولا المحاباةُ منى ... لم تُطقها مَسعاة عَنْس وَعبْس

ثم ذكر فضَل الفرس على اليمن إذ أعانوا على إخراج الحبش. ولم تعدّ مدائح أبي تمام والبحتري مُزْرية بالعصبية فيهما.

(ب) وقال أبو الطيب في كافور:

ويغنيك عمّا ينسب الناس أنّه ... إليك تَناهي المكرماتُ وتُنسَب
وأيّ قبيلٍ يستحقّك قدرُه ... مَعدّ بن عدنان فِداك ويَعرُب

***

أبلى الأجلّة مهرى عند غيركم ... ويدّل العُذر بالفُسطاط والرسَن
عند الهمام أبي المسك الذي غرِقَت ... في بحره مضرُ الحمراء واليمن

وفي البيتين الأولين موضع للمؤاخذة لا يشفع فيه مقام المدح، واقتضاء الصنعة إذا شفعا في مثل قوله:

ومن قول سام لو رآك لنسله : ... فدَى ابن أخي نسلي ونفسي ماليا

(جـ) وقال في مدح ابن العميد:

أرأيت همةَ ناقتي في ناقةٍ ... نقلتْ بداً سُرُحًا وخُفًّا مُجمَرا

تركت دُخان الرمثِ في أوطانها طلبًا لقوم يُوقِدون العنبرا

***

مَن مُبلغ الأعراب أنّي بَعدهم لاقيتُ رسطاليس والإسكندرا
ولقيت بطليموس دارس كُتُبه متملكاً متبدياً متحضرا

والظاهر أن الشاعر يصف انتقاله من البداوة إلى الحضارة فقد ذكر دُخان الرّمث. وهو من شجر البادية، وذكر الأعراب. ثم قابل هذا بالعنبر وأرسطاليس والإسكندر. فكلام الشاعر عن الأعراب لا العرب. فليس فيه قياس أمة بأمة بل قياس حال بحال: بداوة وجهالة بحضارة وعلم. ولكني مع هذا لا أبرّئ الشاعر من أنه وقف موقف التهمة. وكان خيراً له ألاّ يقول هذا.

هذا ما يمرّ به القارئ أثناء قراءة الديوان من العصبية والخروج على العصبية. والحق أن أبا الطيب لم يمثل العرب بأقواله كما مثلهم بأفعاله. إنما كان أبو الطيب شاعر العرب بما مثّلهم في عيشه وخلقه وفعله وقوله كما قدمت في أول الفصل.

***

ولا يقاس أبو الطيب في الإشادة بالعرب والفخر بهم والدفع عنهم، ودعوتهم إلى استعادة مجدهم- بشاعر العرب الحق الذي فاض شعره في القرن الخامس الهجري بالعزة العربية، والعصبية للعرب والإشادة بمجدهم. وذلكم الشاعر الأمويّ النابغ الأبيوردي.

الحق أن أبا الطيب لا يقاس بالأبيوَردي في هذا الشأن، بل لا يستحق أن يذكر معه في هذا الصدَد. ولا يتسع للتمثيل بروائع الأبيوردي ولكن ينبغي أن نذكر أن أبا الطيب عاش في بلاد العرب، والأبيوردي عاش في ديار العجم؛ فكان كل ما حوله يثير عصبيته، كما فعل المتنبي حين ذهب إلى بلاد العجم [1].

هذا ولأبي الطيب، غير ما بيّنت، آراء منثورة ترجع إلى أمور شتى لا تبين عن مذهب مكين في النفس، ويستطاع تعدادها هنا.

(١) ص ١٧٤ وما بعدها.

obeikandl.com